الفصل الثالث

سفـرة إلـى الشـام

لما كان زمن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – كتب إليه يزيد بن أبي سفيان أن أهل الشام قد كثروا وملأوا المدائن ، واحتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم ، فأعِنّي يا أمير المؤمنين برجال يعلمونهم ، فدعا عمر خمسة من الأنصار جامعي القرآن وهم : معاذ بن جبل ، وعبادة بن الصامت ، وأبى ابن كعب ، وأبو أيوب ، وأبو الدرداء فقال لهم :

إن إخوانكم من أهل الشام قد استعانوني بمن يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين فأعينوني – رحمكم الله – بثلاثة منكم ، إن أجبتم فاستهموا ، وإن انتدب ثلاثة منكم فليخرجوا ، فقالوا : ما كنا لنتساهم ، هذا شيخ كبير ، لأبي أيوب – وأما هذا فسقيمَ ــ لأبي بن كعب – فخرج معاذ وعبادة وأبو الدرداء ، فقال عمر : ابدأوا بحمص فإنكم ستجدون الناس على وجوه مختلفة : منهم من يلقن ، فإذا رأيتم ذلك فوجهوا إليه طائفة من الناس ، فإذا رضيتم منهم فليقم بها واحد إلى دمشق والآخر إلى فلسطين . وقدموا حمص فكانوا بها حتى إذا رضوا من الناس أقام بها عبادة وخرج أبو الدرداء إلى دمشق ومعاذ إلى فلسطين[1] .

وخطب عمر بن الخطاب بالجابية[2] فقال : من كان يريد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل .

---

(١) طبقات ابن سعد .

(٢) الجابية : قرية من أعمال دمشق ثم من عمل الجيدور من ناحية الجولان قرب مرج الصفّر فى شمال حوران . وباب الجابية بدمشق منسوب إلى هذا الموضع . ياقوت ، معجم البلدان ٢/٩١ .

وكان عمر بن الخطاب يقول حين خرج معاذ بن جبل إلى الشام : لقد أخل خروجه بالمدينة وأهلها في الفقه وما كان يفتيهم به ، ولقد كنت كلمّت أبابكر ـــ رحمه الله – أن يحبسه لحاجة الناس إليه فأبى عليَّ وقال : رجل أراد وجها يريد الشهادة فلا أحبسه ! فقلت : والله إن الرجل ليرزق الشهادة وهو على فراشه وفي بيته عظيم الغنى عن مصره ! قال كعب بن مالك : وكان معاذ ابن جبل يفتي بالمدينة في حياة رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم – وأبي بكر .

وقال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – : إن العلماء إذا حضروا يوم القيامة كان معاذ بن جبل بين أيديهم قذفة بحجر(١) .

وقال عنه عمر أيضا : عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ . ولولا معاذ لهلك عمر(٢) .

وروى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه ـــ وكان يقدر أبا عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل حق قدرهما ويعرف لهما فضلهما – قال : إن أدركني أجلي وأبو عبيدة حيّ استخلفته على أمة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فإن سألني ربي لم استخلفته ؟ قلت :

فإني سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : « إن لكل أمة أمينا وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » ، وإن أدركنى أجلي وأبو عبيدة قد توفى استخلفت معاذ بن جبل ، فإن سألني ربي لم استخلفته ؟ قلت : إني سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : « يحشر معاذ يوم القيامة بين يدى العلماء » .

---

(١) طبقات ابن سعد ، ص ٣٥٠ ، وجاءت « رتوة بحجر » فى صفوة الصفوة لابن الجوزى ، ج ١/ ٣٩٢ . والحديث صحيح أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ٥/٢٣٥ .

(٢) ابن حجر ، الإصابة ، ص ٤٢٧ .

وأبو عبيدة بن الجراح – رضي الله عنه – هو عامر بن عبد الله بن الجراح ابن هلال بن حنبة بن الحارث بن فهر بن مالك ، يجتمع نسبه مع النبي – صلى الله عليه وسلم – في الأب السابع وهو فهر بن مالك القرشي . وهو أمين هذه الأمة وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الرجلين اللذين عينهما أبو بكر الصديق يوم سقيفة بني ساعدة حين اجتمع الصحابة بعد وفاة النبي – صلى الله عليه وسلم – ليتشاوروا في أمر الخلافة ، والرجل الآخر كما هو معروف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وهو أحد الخمسة الذين أسلموا وعاهدوا الرسول – صلى الله عليه وسلم – على يد أبي بكر الصديق . وقد شهد المشاهد كلها مع الرسول الكريم . وكان يوم بدر وحين خرج أبو عبيدة مع الصحابة وخرج أبوه مع الكفار فجعل يتصدى لابنه أبي عبيدة لقتله ، فجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما كثر عليه ، قصده أبو عبيدة فقتله ، فأنزل الله ــ عز وجل ــ فيه قوله تعالى : « لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1] .

وقد فتح الله على يد أبي عبيدة بلادا كثيرة ، وله مع المشركين غزوات شهيرة ووقعات معروفة ، منها وقعة حمص الأولى التي حدثت بعد فتح دمشق وانهزام الروم . ولما أفضت الخلافة إلى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – كتب إلى من بالشام يعزيهم في أبي بكر الصديق ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله ، ثم كتب كتابا آخر إلى أبي عبيدة بن الجراح جاء فيه :

---

(١) سورة المجادلة ، الآية : ٢٢

سلام عليك ، أما بعد : فإنك – بحمد الله – في كنف من المسلمين وعدد يلقى بعضهم حصار دمشق ، فإذا ورد عليك كتابي هذا فاقرأه على من قِبَلَك من المسلمين ، وأعلمهم بأنك الوالي عليهم وابعث سراك إلى نواحي الشام ، وانظر فكل من استغنيت عنه من المسلمين فابعثه إليّ ، ومن احتجت إليه في حصارك فاحبسه عندك وأمسك فيمن تمسك عندك خالد بن الوليد ، فإنه لا غنى لك عنه ، والسلام » .

وهو بذلك يكون قد عزل خالد بن الوليد من الإمارة . وعين أبا عبيدة على الجيوش ، فنصره الله ـــ تعالى ـــ حتى التمس الروم الصلح على دفع الجزية وفتح له باب الجابية ، ودخلها المسلمون فى دمشق يوم الجمعة من رجب سنة أربع عشرة من الهجرة . ولكن تحولوا إلى فحل ، فعبأ أبو عبيدة المسلمين . فجعل على ميمنته معاذ بن حبل ، وعلى ميسرته هاشم بن عتبة ، وعلى الرجالة سعد بن زيد ، وعلى الخيل خالد بن الوليد ، وحدثت وقعة جليلة فتح الله فيها على المسلمين ، وكان ذلك في سنة خمس عشرة من الهجرة .

ومع بعدهما عن مقر الخلافة وحروبهما في بلاد الشام ، لم يغفلا لحظة واحدة عما كان يحدث فى ديار المسلمين ولم يتوانيا فى بذل النصح والمشورة للخليفة الجديد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، كتبا له صحيفتهما المشهورة التي جاء فيها :

من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب : سلام عليك . أما بعد : فإنا عهدناك وأمر نفسك لك مهم . فأصبحت قد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها ، يجلس بين يديك الشريف والوضيع ، والعدو والصديق ، ولكل حصته من العدل ، فانظر كيف أنت عند ذلك يا عمر ؟ فإنا نحذرك يوما تعنو فيه الوجوه ، وتجف فيه القلوب ، وتنقطع فيه الحجج لحجة ملك قهرهم جبروته . فالخلق داخرون له يرجون رحمته ويخافون عقابه . وإنا كنا نتحدث أن أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها ، إلى أن يكونوا

إخوان العلانية أعداء السريرة ، وإنا نعوذ بالله أن ينزل كتابنا إليك سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا ، فإنما كتبنا به نصيحة لك . والسلام عليك .

فكتب إليهما عمر بن الخطاب – رضي الله تعالى عنه ــ : من عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة ومعاذ ، سلام عليكما . أما بعد : أتاني كتابكما تذكران أنكما عهدتمانى وأمر نفسي لي مهم فأصبحت قد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها ، يجلس بين يدي الشريف والوضيع ، والعدو والصديق ، ولكل حصته من العدل . كتبتما : فانظر كيف أنت عند ذلك يا عمر ! وإنه لا حول ولا قوة لعمر عند ذلك إلا بالله عز وجل . وكتبتما تحذراني ما حذرت منه الأمم قبلنا ، وقديما كان اختلاف الليل والنهار بآجال الناس يقربان كل بعيد ، ويبليان كل جديد ، ويأتيان بكل موعود ، حتى يصير الناس إلى منازلهم من الجنة والنار ، كتبتما تحذراني أن أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها إلى أن يكونوا إخوان العلانية أعداء السريرة ، ولستم بأولئك وليس هذا بزمان ذاك ، وذلك زمان تظهر فيه الرغبة والرهبة ، تكون رغبة الناس بعضهم إلى بعض لصلاح دنياهم . كتبتما تعوذاني بالله أن أنزل كتابكما سوى المنزل الذي نزل من قلوبكما ، وأنكما كتبتما به نصيحة لي ، وقد صدقتما ، فلا تدعا الكتاب إلىّ فإنه لا غنى بي عنكما . والسلام عليكما .

وحاول عمر بن الخطاب في سنة سبع عشرة الخروج إلى الشام لتفقد أحوال رعيته هناك . ويقول ابن إسحاق في ذلك : خرج عمر إلى الشام غازيا في سنة سبع عشرة ، حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد ، فأخبروه أن الأرض سقيمة ، فرجع بالناس إلى المدينة[1] .

---

(١) انظر الطبري ، المرجع السابق ، ص ٥٧ وما بعدها .

٢ ــ مدرسته العلمية فى الشام :

ولما استقر معاذ بن جبل ومعه زوجتاه وابنه عبد الرحمن فى بلاد الشام ، بدأ في إلقاء دروسه وتعليم الناس أمور دينهم ، ويفقههم بالحلال والحرام حتى تخرج على يديه نفر كثير من التابعين العلماء الفقهاء الذين حملوا راية الإسلام في ربوع الشام ونشروه في الممالك الإسلامية . ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :

١ ــ **أبو مسلم الخولاني** : وهو عبد الله بن ثوب – رضي الله تعالى عنه – وهو تابعي جليل من أصحاب الخوارق والكرامات . ارتحل عن اليمن سنة أن قبض النبي – صلى الله عليه وسلم – فرأى أبابكر وعمر ومعاذا وغيرهم من الصحابة – رضي الله تعالى عنهم أجمعين – ثم سافر إلى الشام واستقر بداريا غربي دمشق وكان مقامه بها إلى أن توفى بها سنة ٦٢ هـ[١] .

٢ ــ **عبد الرحمن بن أبي ليلى** : واسمه يسار ، ويقال : بلال ، روى عن معاذ ابن جبل وعن غيره . قال عنه عبيدالله بن الحارث بن نوفل : ما ظننت النساء ولدن مثله[٢] .

٣ ــ **عطاء بن يسار الهلالي** : أبو محمد المدني مولى ميمونة زوج النبي – صلى الله عليه وسلم – روى عن معاذ بن جبل . روى الواقدي أنه توفي سنة ٩٤ هـ وهو ابن ٨٤ سنة . وقيل : توفي بالاسكندرية كما جزم بذلك ابن يونس في تاريخ مصر . وذكره ابن حبان في الثقات وقال : قدم الشام فكان أهل الشام يكنونه بأبي عبدالله ، وقدم مصر فكان أهلها يكنونه بأبي يسار[٣] .

---

(١) انظر ابن العماد ، شذرات الذهب ، ١/ ٧٠ .
(٢) انظر ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ٦/ ٢٦٠ .
(٣) ابن حجر ، نفس المرجع السابق ، ٧/ ٢١٧ .

٤ ــ **قيس بن أبي حازم** : واسمه حصين بن عوف ، ويقال : عوف بن عبد الحارث ، روى عن أبي عبيدة ومعاذ بن جبل وابن مسعود وغيرهم . وهو من قدماء التابعين ، وهو متقن الرواية ، وتوفي سنة ٨٤ هـ[١] .

٥ ــ **مالك بن يخامر** – ويقال : ابن أخامر السكسكي الألهاني الحمصي . روى عن معاذ بن جبل وعبد الرحمن بن عوف وآخرين . ذكره ابن حبان في الثقات . مات سنة ٧٠ هـ[٢] .

٦ ــ **أبو بحرية عبد الله بن قيس السكوني الحمصي** : شهد خطبة عمر بالجابية وروى عن معاذ بن جبل وأبي عبيدة بن الجراح وأبي الدرداء وأبي هريرة وغيرهم . وهو تابعي ثقة ذكره ابن حبان فى الثقات . وكان ناسكا فقيها يحمل عنه الحديث . وذكر الطبري أنه مات سنة ٧٧ هـ[٣] .

٧ ــ **إدريس الخولاني** : واعظ دمشق وقاضيها . روى عن معاذ بن جبل وكثير من الصحابة . وروى عنه الزهرى وأبو قلابة وغيرهما من التابعين .

ــ **ويزيد بن عميرة الزبيدي الحمصي** : روى عن أبي بكر وعمر ومعاذ ابن جبل وابن مسعود . وذكره زرعة الدمشقي في الطبقة العليا التي تلي الصحابة ، وذكره ابن سميع فيمن أدرك الجاهلية من أصحاب معاذ . وكان ثقة وذكره ابن حبان فى الثقات . وقال أبو مسهر : كان أصحاب معاذ أكبرهم مالك بن هبيرة ، وكان رأس القوم ، يزيد بن عميرة الزبيدي وكان من رءوسهم[٤] .

---

(١) ابن حجر ، المرجع السابق ، ٨/ ٣٨٦ ، ٣٨٧ رقم ٦٨٩

(٢) ابن حجر ، المرجع السابق ، ١٠/٢٤ رقم ٤٠

(٣) ابن حجر ، المرجع السابق ، ٥/ ٣٦٤ رقم ٦٢٧

(٤) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ١١/ ٣٥١ ، ٣٥٢ رقم ٦٧٦

٩ ــ **مالك بن هبيرة** : بن خالد بن مسلم بن الحارث بن السكون السكونى . وعداده في أهل مصر . روى عن النبي – صلى الله عليه وسلم – ، وولي حمص لمعاوية ، وروى عنه من أهل حمص غير واحد . وكان أكبر أصحاب معاذ بن جبل(١).

١٠ ــ **مسلم أبو عبد الله الخزاعى** : صاحب حرس معاوية ، وهو أول من تولى الحرس . روى عن معاذ بن جبل وأبى الدرداء ذكره ابن عساكر فى تاريخه ، وأورد فى ترجمته الحديث الذى أخرجه له أبو داود فى كتاب الخراج من طريق زيد بن واقد ، عن معاذ بن جبل قال : « من عقد الجزية فى عنقه فقد برىء مما عليه رسول الله ــ صلى اللهعليه وسلم ــ » (٢).

هذا وقد روى عنه خلق كثيرون واستفاد من علمه وفضله علماء ثقات حملوا الرسالة وتابعوا المسيرة في سبيل نصرة دين الله ونشره بين العالمين .

---

(١) ابن حجر ، المرجع السابق ، ١٠/٢٤ رقم ٣٩

(٢) أبو داود – طبع دار الحديث بحمص – حـ ٣ ، صـ٤٥٩ رقم ٣٠٨١